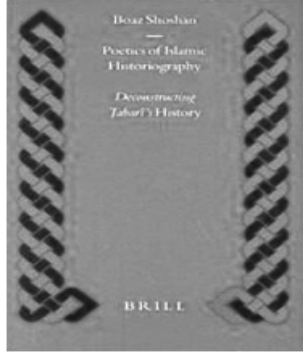


شعرية التأرخة الإسلامية

تفكيك تاريخ الطبري

تأليف بواز شوشان

Boaz Shoshan يوضح
بواز شوشان في كتابه
Poetics of Islamic
Historiography –
Deconstructing
Tabari's History
شعرية التأرخة
الإسلامية – تفكيك



تاريخ الطبري (دار بريل، لايدن - بوسطن، ٢٠٠٤) أن الهدف من تأليفه لم يكن الانخراط مرة أخرى في إعادة تركيب تاريخ بدايات الإسلام. ويبدو لي أن التعبير «مرة أخرى» يشير إلى السرديات التي تناولت تاريخ الإسلام قديماً وحديثاً. ولم يكن هدف الكتاب كذلك الانخراط في ذلك المشروع المعروف عن تثبيت صحة حادثة ما تاريخياً. فقد قرر مؤلف الكتاب تعلم شيء جديد حول التأرخة [تدوين التاريخ] historiography الإسلامية المبكرة. لذلك يمكننا القول إن الهدف الأساس من تأليف هذا الكتاب هو تقديم قراءة جديدة للتاريخ تعني بتقديم فهم جديد للافتراضات التي سار عليها الكثير من الذين أسهموا في إنتاج هذا التاريخ عبر ما قدموه من سرديات وكتابات يسميها شوشان أحياناً افتراضات تاريخية. فضلاً عن فهم كل ما من شأنه تقويض مثل تلك

the challenge and hidden promise of globalization, New York, crown business, 1999, 2000.

٧ لوكاش، الطبقة والوعي التاريخي History and Class Consciousness, MIT Press, 1972 أيضاً: أنطولوجيا الوجود

الاجتماعي، Merlin Press، The Ontology of Social Being, 1980,

٨ Michael Thompson (ed.), George Lukacs Reconsidered: Critical Eassays, New York, 2011, Stephen Eric Bronner, Lukacs and the Dialectic,

٩ See Karl Manheim, Utopia and Ideology: An Introduction to .the Sociology of Knowledge

١٠ انظر على سبيل المثال أعمال هوركهايمر، أدورنو، ماركوزه، فرانكس نيومان، وأخيراً أعمال يورغن هابرماس. أول هذه الكتابات هو جدل التنوير Dialectics of Enlightenment.

١١ .Zbigniew Brzezinski, Between Two Ages

الفصل الرابع من هذا الجزء الذي كان عنوانه (صوت الطبري ويده) موحياً للغاية.

ويقودنا هذا الكلام الى تأمل آخر يتعلق بشكل كبير بالجزء الثاني من هذه الدراسة الذي تناول تحليل السرديات التاريخية التي ذكرها الطبري عن واقعة السقيفة بعد وفاة النبي ومقتل عثمان بن عفان ومعركة صفين بين جيش الإمام علي بن أبي طالب وجيش معاوية وأخيراً واقعة كربلاء. فيوضح شوشان أن هذا الجزء لا يقترح فقط مقترباً مختلفاً لقراءة هذه التدوينات التاريخية إذا ما وضعنا في البال أهدافاً أخرى غير «التفكيك»؛ فإنه يقدم كذلك مساهمة أخرى لتقييمنا للكاتب مع باحثين متميزين مثل باريت وفون غرونباوم، والكلام ها هنا عن الأدب العربي الكلاسيكي، اللذين استغربا، عندما درسا التراجم في الشعر^(٣)، من أن الأدب العربي على رغم غناه في كونه مادة نادرة وغير عادية، «لم يذهب، بجدّ، باتجاه السرد أو الدراما على نطاق واسع»^(٤). فيخالفهما شوشان الرأي بأن هذا التقييم أسس على تعريف ضيق للأدب قائلاً «لورمي أحدهما بشباكه الى أبعد من ذلك آخذاً في اعتباره تاريخ الطبري، فسيجد فيه ربما مثلاً واسعاً على الأدب الدرامي المنتج في العصر الإسلامي الكلاسيكي». ولا ينبغي أن يكون الأمر مفاجئاً، فالحياة هي دراما، وكلنا عرفنا وخبرنا أن دراما التأريخ لا يمكنها أن تقوم مقام دراما الحياة الواقعية، والتأريخ الإسلامية كما مورست في تاريخ الطبري ليست استثناء من ذلك كما يوضح

الافتراضات. هكذا يدخل الكاتب منطقة خطيرة منهجياً وفكرياً وعقائدياً؛ وكما يبدو أن هذا الأمر ليس تحدياً بسيطاً إذا أخذ بعين الاعتبار زمن كتابة «تاريخ الطبري» الموضوع الذي يبحثه هذا الكتاب ومعاناة قارئ هذا الكتاب حيث يزرع على الدوام تحت رحمة المصادر «الخالية من العيوب» إذا جاز التعبير، وحق استعمال هذه العيوب في المعرفة التاريخية كما يشير الكاتب. إذ يجب على القارئ التسليم بمواقفها، وهذا الأمر معروف، في الحقيقة، في كل الأعمال التاريخية منذ العصور القديمة إلى أيامنا الحاضرة؛ ويعني هذا طمس أي تمييز بين الواقعة التاريخية والنص الذي يتناولها، ومن ثم إنزال النص منزلة الواقع وإنزال منتجه منزلة «مراقب» ذي امتياز لواقع ما لا أكثر من ذلك ولا أقل على حد تعبير شوشان.

ويمكن أن يكون كل ما تقدم أمراً عادياً جداً عندما لا يكون هناك سبب وافٍ لدراسة التاريخ على العموم، بما فيه تاريخ الطبري «بوصفه تاريخاً غير متسم بالمحاكاة، حتى لا نقول ضد المحاكاة»؛ فلهذا السبب ينبغي كشف التاريخ كما يكشف الفن بشكل عام^(١). وهذا ما حاول بواز شوشان عمله في الجزء الأول من هذا الكتاب. فقد حاول، بتعبير آخر، استعمال التغير النظري الحديث في فهم المحاكاة التي تأخذ في حسابها الكيفية التي ينتج بها العالم بوصفه لغة «يُحتمل أن تستدعي سؤالاً محدداً وتكشف تلك الأعراف التي تنظم وتشبّه التمثيلات»^(٢). عالج شوشان كذلك في هذا الجزء الافتراض المحاكاتي الذي يشكل أساس التاريخ ويشير به إشكالية لا سيما في

مثل كتاب ابن مسكويه (ت. ٤٢٠ / ١٠٣٠) وبين نوع علمي مختلف. وفي الحقيقة فإن أي «علم» غير ديني له صلة بالفلسفة الكلاسيكية وبما يسمى بالعلوم الطبيعية. فينبغي على هذا التأليف الجديد المنحوت من حقول علمية مختلفة، أو على الأقل يُتوقع منه ذلك، الاطلاع على شكل التأريخ ومضمونها.

ولا تحتاج الكتابة التاريخية عند المسعودي، كما يخبرنا شوشان، لا سيما كتابه مروج الذهب ومعادن الجواهر الذي أثار الكثير من الاهتمام إلى مناقشة مفصلة في هذا الكتاب^(٥). إلا أن ماله صلة بهذا الموضوع وتجدر الإشارة إليه، حسب المؤلف، هو الكيفية التي يُبين بها المنظور الذي اعتمده هذه الدراسة وهو اختلاف المروج وتشابهه مقارنة بالتاريخ. فمن ناحية الاختلاف، تسهل ملاحظة أن المسعودي تخلى عن الأخذ بمنهجية الحديث إلى حد كبير، كما يبين الخالدي وآخرون، فلم تعد هوية المصدر جزءاً من النص. كما يخفي النموذج الشهير الذي يزودنا بالإسناد لغايات عملية. وليس صعباً، كذلك، تقدير إيجاز كتاب المسعودي نظراً لاهتمامه مصنّفه بالحقائق إذا جاز التعبير. وللتمثيل على ذلك بمثال ملموس، فبينما يكرس التاريخ، كما رأينا، عشرات الصفحات لواقعة كربلاء، لم تأخذ تلك الواقعة سوى أقل من عشر صفحات من المروج^(٦).

ومما لا يمكن تأكيده تماماً هو اعتبار الإيجاز عاملاً مؤثراً في السرد عند المسعودي. بل وكما يقول شوشان «إنني أشك في أن للشكل علاقة فعلية كبيرة بالمحتوى، كما يروق لهايدن وايت قوله». وفي كل الأحوال، وكيفما

المؤلف هذا الأمر مفصلاً. وعلى سبيل المثال، ينظر شوشان في كتابه إلى دراما صراع الأمين والمأمون أو تراجيديا مقتل الحسين بوصفهما موضوعين يتعلقان بهذه الدراسة. وزبدة القول، فإن الدراما هي الدراما، سواء نسجتها الحياة الواقعية أم الخيال، وسواء صوّرها الأدب المحض أم صوّرتها أنواع أدبية أخرى كالتأريخ؛ فالمسألة تبقى مسألة تصنيف وليست جوهرًا كما يوضح المؤلف في الجزء الثاني من كتابه.

وثمة مسألة أخرى يشير إليها الكتاب وينبغي الأخذ بها في هذه المرحلة، وهي أن كتاب الطبري يعد، من غير ريب، ذروة ما وصل إليه التاريخ المقدس (أو التاريخ الكلاسيكي أو أي وصف آخر) الذي أنتجه العصر المؤسس للإسلام. ويعتقد شوشان بأن شعريته التي حللها في هذا الكتاب فيها الكثير من شعرية هذا النوع من الدراسات. ولكن المسألة، بحسبه، هي الكيفية التي تمكن بها دراسة تاريخ الطبري في سياق أوسع؛ سياق يتضمن ليس فقط التأريخ الإسلامية المدونة قبل عصر الطبري بل أجيالاً بعده. ولا اعتبارات أخرى، لم تكن هذه المسألة، التي لها صلة وثيقة بهذا الموضوع بخاصة، مركزية في هذا الكتاب. وكما يوضح شوشان فقد عدّ كتاب الطبري حداً فاصلاً تأسس عليه أن تأريخ القرون التالية له، على سبيل المثال، قد قدمت أشياء جديدة ومشاريع مختلفة. لذلك يصفه الخالدي بالحكمة، والخالدي الذي يربط تاريخ الطبري بدراسة الحديث، يزوج بين كتابة تاريخية من جيل متأخر مثل كتاب المسعودي (ت. ٣٤٥ / ٩٥٦) أو من قرن متأخر

الهوامش

- ١ Murray Krieger "The Semiotic Desire for the Natural Sign: Poetic Uses and Political Abuses" in David Carroll, ed., States of "Theory": History, Art, and Critical Discourse (New York, 1990), 248.
- ٢ John D. Lyons and Stephen G. Nichols, Jr., "Introduction," in John D. Lyons and Stephen G. Nichols Jr., eds., Mimesis: From mirror to Method, Augustine to Descartes (Hanover, 1982).
- ٣ Rudi Paret, "Das 'tragische' in der arabischen Literatur," Zeitschrift für Semiotik 6 (1928): 247- 52; 7 (1929): 17-28, حيث ذكرت واقعة كربلاء عرضاً.
- ٤ Gustave E. von Grunebaum, Medieval Islam: A Study in Cultural Orientation (Chicago, 1953), 287.
- ٥ Tarif Khalidi, Islamic Historiography: the histories of al-mas'udi (Albany, 1975); Ahmad M. H. Shouli, al-mas'udi and his world: a Muslim humanist and his interest in non-Muslims (London, 1979).
- ٦ المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجواهر، تح. جارلس بيلات (بيروت، ١٩٧٠) مج ١١١، ٢٤٨-٥٩. ابن مسكويه، تجارب الأمم.

كانت الأسباب، فقد أنزلت كربلاء المسعودي موقع الحسين، أو بطل السرد، إلى الهامش تماماً. ولذلك فليس هناك أدنى شك في أن قراءة كربلاء بوصفها تراجيديا، التي يخبرنا نص الطبري عن احتماليتها الواسعة، ليست لها علاقة بموضوع الواقعة في المروج. فرواية المسعودي عن قصة استشهاد الحسين، في ما يخص فضاءها ومقوماتها، رواية مختلفة تترتب عليها آثار مختلفة جداً على حد تعبير المؤلف.

ولا يعني ذلك، إذا ما تعمقنا في شأن الشعرية، أنه ليست هناك عناصر منها توجد في عمل المسعودي كما يوضح شوشان في موقع آخر. فلا غرابة إذن، في رأيه، في وجود قضية تتسم بالمحاكاة؛ وكيف يمكن أن تختفي من الكتابة التاريخية؟ وهكذا إذا ما بقينا في حادثة كربلاء سنحصل على تفاصيل مسلم بن عقيل مبعوث الحسين إلى الكوفة (تكررت هذه مرتين في فقرة مختصرة)، وكيف حاصره جنود بني أمية عندما كان حائراً يتجول في أزقة المدينة إلى أن وجد ملتجأً. وبعد ذلك، اكتشف أمره فحاول أن يشق طريقه بالسيف لكنه جرح كما يصفه النص الذي يصور، بشكل محاكاتي، محاولة مسلم لشرب الماء وكيف أن الدم الذي كان ينزف من فمه اختلط مع الماء. وكذلك استعمال الاستشهادات الحرفية في الحوارات وتقارير شهود العيان والراوي كلي العلم واقحام الشعر لعكس أفكار عامة، كل ذلك، كما في تاريخ الطبري، يبرز في وصف كربلاء عند المسعودي.

مجلة الكوفة